هوذا على بدء :

من الأعماق

للأستاذ كامل محمود حبيب

— ٢ —

كتبت في العدد ٨١٩ من « الرسالة » الغراء قصة « من الأعماق » ، وتركتها — كما هي في الحياة — بدون خاتمة ، وانتظرت رأي عقل القارئ العزيز لعله يتير السبيل لقلبين ، فانثالت عليَّ الرسائل من كل ناحية ، فاجتمع لي منها آراء أعرض بعضها على صفحات « الرسالة » . وأنا — إذ أفعل — أدير الكلام على طريقتي وأسلوبي ، لي الأسلوب والأداء ، ولأصحاب الرسائل الرأي والفكرة :

جاء في رسالة الأديب عيسى الأشعري بأسيوط — بعد كلام طويل — ما يأتي :

سيدي — يا حضرة الضابط الفاضل — أنت تؤمن بأنك رجل حرب لا تعرف إلا الفوز في المعركة أو الموت . فدعني أجثو أمامك في خشوع وأنحني لك في احترام ، أنشق عبير روحك الوثابة ، وأقبّل ثرى وطئته قدمك الطاهرة ، وأستمتع ساعة باستجلاء طلعتك الصارمة ، أحيي فيك الشجاعة والشهامة والرجولة . وحين رجعت إلى أرض الوطن الغالي — عائداً من الميدان — رأيتك يا قلب مصر النابض ، وأملها البسام ، وعلمها الخفّاق ، فخفق لك قلبي واهتزت مشاعري ، لأنك رجل حرب لا تعرف إلا الفوز في المعركة أو الموت . آه لو استطعتُ فاقتحمت هذا الجمع الزاخر وهو يفور ويضطرب لألقي بين يديك أنقى لك نبضات قلبي ووثبات فؤادي وسلوات روحي !

تلك هديتي إليك ، فقلبي قد تفتح عن تقدير لك وإجلال ، وفؤادي قد انتشى بعطر إيمانك الزكي ، وروحي قد هفت نحو زهرات شبابك النضير التالق . فأنت بعثت فينا — من أعماء الزمن — روح العزة والكبرياء .

لقد قلت لي — إذ ذاك — : « إنني أنا القنبلة التي يقذف بها عاهل البلاد العظيم في وجه العدو فتنفجر هدّامة مدمرة ، وأنا الدفع بطلقه القائد الأعلى على صفوف الطغاة فلا يخطئ ولا يخيب ، وأنا السيل العرم الذي يتدفق فيجرف في تياره الجناة وإن عتوا وتجبروا » .

هذه الشجاعة ، وهذه العقيدة ، وهذا الإيمان ، كل أولئك — يا سيدي — أشرقت نوراً يتلألأ على جبين الوطن فينعكس على صفحات التاريخ فخراً تنحني له هامة الزمن ، وتخضع أعناق الجبابرة ...

وحين سلت سيفك زها وأشرق تاريخ الوطن ، وثارت حميته ، وتأججت كبرياؤه ، وتألقت فيه روح الحرية . وحين لذعت في الميدان بالحديد والنار ، ارتد العدو على أدباره خاسرين ، وانهزموا أمام عزمك صاغرين . وفزع كل ذي طمع ، وذهر كل ذي مأرب . وحين أصررت وتقدمت في شجاعة ، وصبرت في إيمان — حينذاك — انطوى العالم بين جناحيك في ذلة

وقاص وابن عباس وغيرهم يستدل به في التفسير ويستعان به في التشريع ولا يعول عليه في الصلاة والعبادات مع العلم أن هؤلاء السابقين وغيرهم وافقوا عثمان وأقروه ولزموا ما وافق رسم المصحف الإمام والواقع أن ما يروى عنهم مخالفاً له لا تتفق في ضبطه الروايات ما ذلك إلا لعجز الأئمة الثقات تحمل روايته وتكلف حفظه والعناية بتحقيقه فأصبح سنده منقطعاً . وشرط صحة التعبد بالقرآن أن يكون صحيح السند إلى جانب ما اشترطوه من موافقة رسم أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا وموافقة العربية ولو بوجه من الوجوه ، أما اختلاف القراءات السبع وغيرها من القراءات الصحيحة فيرجع السبب فيها إلى أن الجهات التي وجهت إليها المصاحف التي أمر بنسخها سيدنا عثمان كان بها من الصحابة من خفي عنه أهل تلك الجهة ، فلما أمر بحرق ما عدا تلك المصاحف وأن يسيروا على رسم واحد ثبت أهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه سماعاً من الصحابة بشرط موافقة الرسم العثماني ولو احتمالا وتركوا ما يخالف الخط امتثالا لأمر عثمان الذي وافقه عليه الصحابة لما رأوا في ذلك من الاحتياط للقرآن ؛ فمن ثم نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار مع كونهم متمسكين برسم وخط واحد .

عبد الستار أحمد فراج

المدرس بالمعهد الديني

رمضان ، وصمتت ألسن كانت لولاك سليطة بالباطل ، جريئة على الحق . فدعني — يا سيدي — أجثو أمامك في خشوع ، وأنحني لك في احترام ، لأنك رجل حرب لا تعرف إلا الفوز في المعركة أو الموت !

هذا أنت — ياسيدي — في نفسي ، أما هذه المعركة القلبية ، فأنت إن ظفرت بها خسرت هدوء قلبك وراحة نفسك . غداً يجذبك عملك الشريف عن دارك فتفر زوجك وحدها ، فتذهب وما في خيالك سوى خاطرة واحدة ، فأنت ما تبرح ترى بعين قلبك شبحاً يضطرب حول دارك يوشك أن يلجها في غيبتك . سيثور بك الشك ، وتلتهمك الريبة ، وتصفعك النيرة ، فتعيش في حيرة قاتلة تصرفك عن الواجب المقدس . فدع الفتاة تنطلق إلى فتاها ، وفي الأرض مراغم كثير وسعة .

ستقول : هذه فتاة عاقلة متعلمة تقضي حق الزوج وترعى واجبها ، وهي من بيت راسخ الأرومة طيب الجرثومة ، يتدفق في عروقه دم الشرف والإباء والكرم منذ الجد الأول . ولكن هل لها غير قلب المرأة وعاطفة الأنثى وروح الإنسان ؟ ستخلو حيناً إلى نفسها تحدثها حديثاً طويلا لو اطلعت عليه لوجدت من الفزع والرعب في نفسك ... فدع الفتاة تنطلق إلى فتاها ...

وإنا انكشفت القصة كلها أمام الأب فرأى تنازع قلب ابنته سافرة واضحة ، فإن تجاربه ستدفعه حتماً إلى أن يتلمس لها السعادة التي تريد ، وسيضن بها أن تقضي عمرها في مضطرب من الأفكار يعصف بها اليأس ويقصمها الأسى !

***

وفي رسالة الأستاذ محمد أحمد شكم المدرس بمدرسة سعيد الأول بإسكندرية رأي يشبه رأي الأديب الأشمري .

***

وإن في رأي صديق الأستاذ عباس خضر المنشور في العدد ٨٢٠ من « الرسالة » حلا سيكولوجياً عجيباً ، فهو يرى « أن يتعمد عادل قليلا ويترك المعركة تدور بين كرامة جلال — ولا بد أن يستشعرها مع الزمن والتكرار — وبين فتور إلمام وإعراضها عنه ، ويبعث عادل بالمدد إلى قلبها من بعيد ، ومتى الأم سوء حال ابنتها فتشفق عليها وتتحول إلى جانب عادل فتكون عاملا مهماً في إنهاء الموقف ، بحيث يرى الضابط ضرورة فوز كرامته في المعركة بالانسحاب ... »

***

هذا رأي العاطفة والقلب ، أما أصحاب الرأي الثاني ، ورأي العقل والمنطق ، فمن مقدمتهم الأديبة الآنسة سلوى الحوماني ، في رسالتها يتحدث عقل المرأة وقلبها في وقت معاً ، فكلامها ثائر هادئ ، يطعن في هوادة ويصفع في رفق ، وهي قد استهلت رسالتها بقولها : وإني أشكر كاتب قصة « من الأعماق » ، لأنه أتاح لي فرصة أخوض فيها غمار هذا الموضوع وهو من صميم الحياة . إن الفتاة لتجد حرجاً كبيراً في أن تتحدث — علانية وفي صراحة — في مثل هذا الموضوع ، لأنها تشعر في قرارها بالرجعية العقلية تدفعها عن هذا المضمار ؛ وهي حين تتنحى عن إبداء الرأي ترتكب خطأين : الأول ، أنها تذر الموضوع يفقد نصف الحياة حين يفقد نصف الرأي . والثاني ، أنها تفر من ميدان الحياة وهو ميدانها .

ثم تتدفق بعد ذلك تقول : ... ويجب أن ينسحب عادل من هذا الميدان ، فهو يغالط نفسه حين يزعم أنه يحب الفتاة حب قلب وعاطفة وتضحية ، وهو لو صدق لما انقطع عن زيارتها سنة كاملة ، لأن « أباها نهاها من أن تدخل حجرة فيها الأستاذ عادل ، إلا أن يؤذن لها » .

هذا — ولا ريب — سبب تافه ضئيل لا يستطيع أن ينهض عذراً لمن يحب فينطوي سنة كاملة من سَنَ أحب . لقد أراد أن يثأر لكرامة خدشت — كزعمه — فهل عجز من أن يلقى فتاته خفية وفي مأمن من الرقيب ، أو قعد عن أن يرسل إليها رسولا يحدثها حديث قلبه وينشر عليها ذات نفسه ، وهو رجل ذو حيلة ورأي ؟ لقد كان يستطيع أن يفعل لو أراد ، فإذا ضاقت به الحيلة أو غابه الرأي ، انطلق إلى أبيها في غير وناء ولا تريث يكشف أمامه رغبة قلبه وأمل حياته ، أو طار إلى أبيه هو يخبره الخبر كله ، ولكنه لم يفعل شيئاً ، بل وقف على حيد الطريق ينظر إلى الركب وهو يسير ، ثم يزعم — بعد ذلك — أنه يحب فتاته حب

من هذا . فقال : أما ما أشرت عليك به في الأول فلأني أردت بقاء الذكر لأمة الإسلام وبعد الصيت ، وأن يكون من يرد في الأعصار وبطراً من الأمم في الأزمان يرى مثل هذا البنيان العظيم فيقول إن أمة قهرت أمة هذا بنيانها لأمة عظيمة شديدة منيعة . وأما جوابي الثاني فأردت به نفي العجز عن أمة الإسلام كي لا يقول من يأتي في الأعصار الآتية إن هذه الأمة عجزت عن هدم ما بنت فارس ... فلما بلغ الرشيد ذلك قال : قاتله الله فما سمعته قال شيئاً قط إلا صدق فيه ثم أعرض عن هدم الإيوان(١)

أما الآن ، فلم يبق من ذلك البناء الشامخ إلا طاقه وجناحاه . وقد ورد أن هذا الإيوان من أعظم أبنية العالم ، وهو مبني بالآجر على مرتفع من الأرض طوله (١٥٠) ذراعاً ، في عرض مثلها ، وأمامه ميدان طوله (٨٠) ذراعا في عرض (٢٥) . وقيل سعة الإيوان من ركنه إلى ركنه (٩٠) ذراعا وارتفاعه (٨٠) ذراعا . وقد تهدم هذا الإيوان ولم يبق منه في القرن السابع الهجري على ما ذكر ياقوت إلا طاق يعرف بطاق كسرى ، وهو طاق عظيم بني بالآجر مثل كل آجر نحو ذراع في عرض أقل من شبر . وكان فيه من التماثيل والصور شيء كثير : منها صورة كسرى أنوشروان وقيصر ملك أنطاكيه وهو يحاصرها ويحاربه أهلها (٢) .

وأما المدائن فقد أصبحت شبه قرية في الجانب الغربي من دجلة أهلها فلاحون ، شيعة إمامية . ومن عاداتهم أن نساءهم لا يخرجن نهاراً أصلا(٣) . وفي الجانب الشرقي منها مشهد الصحابي المعروف سلمان الفارسي رضوان الله عليه ، وله موسم يذهب الناس إليه لزيارته والتبرك به ويكون ذلك في منتصف شعبان من كل سنة . وكان على مقربة من الإيوان قبران محترمان يرقد فيهما الصحابيان : عبد الله الأنصاري ، وحذيفة ابن اليمان فأشرفا على الغرق لأن مياه دجلة كانت — ولا تزال —

(١) مروج الذهب للمسعودي
(٢) دائرة المعارف البستاني
(٣) تلخيص الآثار في عجائب الأقطار

نقل من الشاطئ ، فنقلت الحكومة بقايا رفاتهما إلى جامع سلمان الفارسي في عام ١٣٥٠ هـ بعربان عسكري نظم(١) .

وقد شاهدت الإيوان منذ سنة تقريباً فرأيته لم يبق من عظمته غير الطاق المرتفع الذي يطاول السحاب بعلوه . أما ما وصفه «البحتري» من تلك الصور المنقوشة على الإيوان كصورة كسرى وجنوده وقواده وهم يتقدمون إلى جيوش أعدائهم الرومان . وصورته والجارية الحسناء تقدم إليه كأس الشراب وقد احدقت به المغنيات والراقصات . كل تلكم الصور وأمثالها لا وجود لها الآن في الإيوان فقد انطمست أعلامها وامحت آثارها . والفرق واضح بين ما كان عليه الإيوان في عصر الدولة العباسية وبينه في عصرنا الحاضر .

وكان من ولع شعراء العرب بوصف ما يرونه من آثار الطبيعة وما فيها من جمال وسحر ، أو تجهم وعبوس ، أن تطرقوا إلى عظمة هذا الإيوان ، وذلك حين كانوا يقفون على أطلال المدائن الخاوية فيتصورون أن أهلها أحياء يسيرون في الأزقة والشوارع بدعة والحمئنان وأن الملوك في وسط قصورهم مع بلاطهم وحاشيتهم وما عليهم من ثياب مزركشة وحلل زاهية فتستفز هذه الأخيلة قريحة أولئك الشعراء وتحرك هذه المناظر قيثارتهم الشعرية ، فيروحون ينشدون قصائدهم التي تفيض بعواطفهم المكبوتة إزاء ذلك الملك الذاهب فيأتون بالشعر والسحر الحلال . وكان من بين الذين شاهدوا عظمة الإيوان وما فيه الشاعر الأرجاني الذي رأى التماثيل الموجودة في الإيوان فنظم قصيدته الرائعة التي لم تدعه إلى نظمها عصبية للفرس — كما يدعي البعض — وإنما كان استجابة لطبع الشاعر وتلبية لسجيته المطلقة التي دعته إلى وصف بعض الصور الجميلة التي شاهدها . وكان من هذه القصيدة قوله :

رأيت عجيباً والزمان عجيب ... رجالا ولكن ما لهن قلوب
تماثيل في صخر نحتن كأنها ... بدو زمن لم يلف فيه أريب
نزلنا وفوداً في حماها ولم يكن ... لنا من قراها في الوفود نصيب
فنحن لدى كسرى إبرويز غدية ... نزول ولكن الفناء جديب

(١) الرأي قديماً وحديثاً للسيد عبد الرازق الحسني

بظاهر قرميسين والركب محدق حواليه فيهم جيئة وذهوب
لدى ملك من آل ساسان ماجد وتور عليه التاج وهو مهيب
مكان المناجى من خليليه واقفاً وإن عز منهم سامع ومجيب
يريك من تحت الحوادث أوجهاً
بها من تصاريف الزمان شحوب
وقاموا على الأقـــدام لا بمقرهم
مدى الدهر من طول القيام لغوب

وقصيدة شاعر الدولة العباسية أبو عبادة البحترى التى وصف بها الإيوان فكانت آية من آيات التصوير الشعرى بعد أن سارت مسير المثل لما فيها من وصف بديع دقيق بعد أن ذكر جميع ما رأى من النقوش والتماثيل التى ارتسمت على جدران الإيوان وما أحيط به من العظمة والجلال . . . وها هو يقول فى أولها يمتدح نفسه :

صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جدى كل جبس
وتماسكت حين زعزعنى الد هر التماساً منه لنفسى ونكسى

إلى أن يقول فى وصف الإيوان مشيراً إلى ما فيه من زخرف وتصاوير :

لو تراه علمت أن الليالى جعلت منه مأتماً بعد عرس
فإذا ما رأيت صورة أنطا كية ارتمت بين روم وفرس
والمنـــايا مواثـــل وأنوشر
وان يزجى الصفوف تحت الدرفس
وهمراك الرجال بين يديه فى خفوت منه وإغماض جرس
وكأن الإيوان من عجب الصنـ ـعة جوب فى جنب أرعن جلس
مشمخر تعـــلو له شرفات رفعت فى رؤوس رضوى وقدس
ليس يدرى أصنع إنس لجن سكنوه أم صنع جن لإنس
غير أنى أراه يشهد أن لم يك بانيه فى الملوك بنكس

وقال ابن الحاجب فى وصف الإيوان ويخاطب بانيه ويذكره بتقلب الدهر وعثرات الزمن :

يا من بناء بشاهق البنيان أنسيت صنع الدهر بالإيوان[1]
كتب الليالى فى ذراها أسطراً يبد البلى وأنامل الحدثان
إن الحوادث والخطوب إذا سطت أودت بكل موثق الأركان

ولشاعر قريش السيد الشريف الرضى يفتخر بالإسلام وقوته على الفرس وذلك فى ذى الحجة ٣٩٧ هـ وقد اجتاز بالمدائن ونظر الإيوان فبهره منظره وأنشد فى ذلك :

قربوهن ليبدلن الخارا وبيدلن بدار الهـــون دارا

إلى أن يقول :

قد تركنا دار كسرى بعده أربعاً ما كن للذل خوارا
وإذا لم تدر ما قوم مضوا فسل الآثار واستنبء الديارا
آل ساسان حدا الخطب بهم واسترد الدهر منهم ما أعارا
كل ملموم القرى صعب الذرى يزلق العقبان منه والنسارا
جمجموا الإيوان فى مبركه مبرك البازل قد فض السفارا
مطرقاً إطراق مأمون الشذا غير النادى حلماً ووقارا
أو مليك وقع الدهر به فأماط الطوق عنه والسوارا

ويحكى أن الملك جلال الدولة البويهى اجتاز بالإيوان فكتب عليه[1] .

يا أيها المغرور بالدنيا اعتبر بديار كسرى فهى معتبر الورى
فنيت زماناً بالملوك وأصبحت من بعد عادتة الزمان كما ترى

وروى أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ع) مر على المدائن عند ذهابه إلى حرب الخوارج فى النهروان ... فلما رأى آثار كسرى وقرب خراجها قال رجل ممن معه :

جرت الرياح على رسوم ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد
وإذا النعيم وكل ما يلهى به يوماً يصير إلى بلى ونفاد

فقال على : أفلا قلتم كما قال الله عز وجل : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منتظرين »[2] .

وكان ممن زار المدائن وشاهد القصر الأبيض — الإيوان — الأمامان الحسن والحسين ابنا على بن أبى طالب (ع) وذلك حين قتل أبوهما وقد توجها إلى المدائن فلحقها الناس بساباط فحمل على الحسن رجل من أهل الكوفة فطعنه فى فخذه ، وسبقهم الإمام

(١) معجم البلدان للحموى .

(١) الكنى والألقاب (٢) تاريخ بغداد